الحضارة الإسلامية

بين الماضي ... والمستقبل (١)

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح "القاهرة"

يمتاز الاسلام بانه دين الحضارة الانسانية الكاملة : بمعنى انه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة .

وانه انشا لونا من الحضارة عرف باسمه . وهو الحضارة الاسلامية .

ومفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما فى تاريخ الحياة العربية الاسلامية . والمفهوم الاصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية انها : —

تعنى حياة الحضر والاقامة الثابتة فى المدن والقرى وعكسها البداوة . وهي حياة التنقل من البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ كانت بادية وكان حضر .

وكان اول من تصدى لهذا التمييز على اساس من الدراسة والتسجيل والتحليل العلمي هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون . **بل ان هذا العالم العربي هو اول من عالج شئون الحضارة بطريقة علمية تحليلية .**

على انه اذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على انها ذلك النمط من الحياة المستقرة . والذى يناقض فى مضمونه البداوة . فينشيء القرى والمدن ويضفي على اصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وادارة شؤون الحياة .

اذا كان ابن خلدون قد بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران فان مفهوم **الحضارة فى العصر الحاضر قد امتد الى الوان من المعنى** ، هي ابعد واوسع مما رءاه ابن خلدون فى عصره ، وفى بيئته العربية فى انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية الى الحضر .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ « مدني » بمعنى « اجتماعي » فان مفهوما اخر ظهر واتصل بها ، اصبح الآن يعرف باسم المدنية .

وابن خلدون نفسه كان سباقا ايضا فى هذا المجال اللفظي فاستعمل كلمة « **التمدن** » وكان يعني بها « **التحضر** » .

على ان تلك المفاهيم اللغوية انما نشات فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خارج العالم العربي .

ولذلك فان **لفظ الحضارة فى مفهومه العالمي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد اصبح اكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوي والتقليدي** واذا كان اصل معنى الحضارة « بفتح الحاء وكسرها » الاقامة فى الحضر . فان المعاجم اللغوية الحديثة تعرف الحضارة فى استعمالها المولد

المعطاء بانها : **مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي والاجتماعي والاقتصادي في العصر .**

وقد يكون من المفيد معرفة مفهوم لفظتين اخريين لهما في الحياة الانسانية شان كبير واثر واضح . وهما : **الثقافة والمدنية .**

فاصل مادة **التثقيف** في اللغة العربية : التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة والمعاجم اللغوية تعرفها في الاستعمال المحدث بانها : العلوم والمعارف ، والفنون التي يطلب الحذق فيها. ونستطيع ان نقول انها : تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر ، وهي حصيلة الحياة الانسانية في مجالات الحياة كلها . وتجمع انماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والادبية والفنية . ولها صورها التي تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والتي يتصل بعضها بتراث للانسانية مشترك ، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها .

ومادة مدن وتمدن متصلة بالمدنية والعيش فيها والاخذ باسباب الحضارة وقد اتصل لفظ المدنية في المفاهيم الجارية بالجانب المادي والمظهري من الحياة. وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ومنشئاتها الملموسة .

وكذلك من حيث الانماط المعيشية في اسسها المادية . وفي صورها المحسوسة في حياة المجتمع . وما يتصل بهذه المظاهر المادية والمحسوسة في حياة الجماعة من قواعد ونظم واعراف .

والحضارة بمفهومها الحديث هي : الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة ومجموع الحياة في صورها وانماطها المادية والمعنوية .

وبعبارة اخرى هي : الخطة العريضة التي يسير فيها تاريخ كل شعب من الشعوب على الارض ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الانسان او الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة .

ولئن كان الاسلام قد **امتاز بانه دين الحضارة الانسانية من حيث تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته . وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظلال اخاء شامل ، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية الرفيعة .**

فان واقع الامر يبين للدارس والباحث والمفكر ان الحضارة الاسلامية استمدت مقوماتها ومناصرها ووجودها واسباب نمائها من الاسلام ذاته .

واذا كان ظهور الاسلام قد سبق في الجزيرة العربية وما جاورها حضارات اقدم منه . كما سبقته ايضا في البلاد التي انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلي او الاقليمي .

فان الاسلام بطبيعته الذاتية استطاع ان يضفي على البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الديني والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية حتى اصبح هناك قدر حضاري مشترك بين المسلمين في مختلف الاقطار وبلاد الدنيا .

دعائم الحضارة الاسلامية :

1) ان الاسلام قد انطوى على **طاقة روحية** جعلت منه قوة فاعلة بل ان فاعليته في هذه الناحية شملت حياة الافراد والجماعات من جميع الجوانب. فهي ثورة روحية وثورة في العبادة والنفوس وثورة في الحياة العملية والمعاملات . وثورة في النظم الاجتماعية بل وفي نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم وكذلك في تشريعات الجماعة والاسرة .

والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة انها كانت اصلاحا جذريا يمس اساس الاوضاع في حياة الناس .

2) ان الاسلام كان منذ يومه الاول **دين دعوة** له رسالة يجب على المسلم ان يبلغها الى الناس كافة . وكانت حياة الشعوب واتصالاتها قد اهلتها لان تتلقى الرسالة الالهية التي فرضت على اصحابها ان يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا .

وفكرة الدعوة في العقيدة الاسلامية قد واتتها ظروف الانتشار في النطاق العالمي وبالتالي تمكن الاسلام من ان ينشر طابعه الحضاري كعقيدة وكنمط للحياة .

3) كان الاسلام **دينا سهلا غير معقد** ولا مركب في عقيدته ونظمه وتعاليمه وكان في الوقت

ذاته ، دينا مباشرا يتصل فيه الانسان بخالقه دون وساطة .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا سالت فاسال الله واذا استعنت فاستعن بالله » وقد كانت البساطة في العقيدة الاسلامية شاملة للعبادات ، والمعاملات جميعا .

وما نظن دينا يطلب الى الفرد شهادة ابسط من شهادة الاسلام على عمقها وعظمتها « لا اله الا الله محمد رسول الله » عبارة سهلة رائعة تقف بالانسان على عتبة الاسلام موقفا سهلا .

وكانت القاعدة الثابتة لدى من بشر بالاسلام ، ان الدين يسر لا عسر « ومن هنا كان الاطمئنان الروحي والفكري اول ما يستشعره من يدخل في دين الله خصوصا وان اعتناق العقيدة كان لابد ان يأتي مباشرة دون وساطة او وكالة . على انه من الحق ان نذكر ان هذه البساطة لم تنته بالضرورة الى ذلك القدر من المرونة الذى قد يشوه التطبيق .

ولعل المقوم الاصيل الذى لم يجعل البساطة تنقلب الى مرونة مشوهة ، هو ان **القرءان كان وعاء للعقيدة كلها** . حفظها على مر العصور واضفى عليها الطابع المشترك في مختلف البيئات وتحت مختلف الظروف .

4) كان الاسلام **دينا رحبا يقبل الاجتهاد** ، ويدعو اليه في حدود اصول العقيدة . وكان يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة الى النظر والى المعرفة اساسا من اسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة الحضارية .

والاسلام في رحابته الحضارية استطاع ان يمتص الوان الحضارة في البلاد التي انتقل اليها وان يسبغ عليها طابعا اسلاميا شاملا .

5) كان الاسلام **دينا للدنيا والآخرة معا** وفي هذا قد اختلف عن كثير من الديانات والعقائد التي ينبع بعضها في ماديات الحياة ثم يضفي عليها مسحة من العبادة او الفلسفة ويتبع بعضها الآخر في مجال الروحية التجريدية .

وقد ترتب على ما اتصف به الاسلام من **جمع بين الروح والمادة** انه اصبح دينا رحبا حيا يلائم حياة الناس ومنطق التطور . كذلك اصبح الاسلام اكثر التصاقا بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة . وفي الوقت ذاته اصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضاري في مجال المدنية من جهة والثقافية والروحية والعقلية بل والاجتماعية من جهة اخرى .

6) **كان الاسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية** . وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الافراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات .

فالاسلام اعطى نظاما متكاملا للحياة سواء من وجهة نظر الفرد أم من وجهة نظر الجماعة . وهذا النظام شمل علاقات الافراد وكثيرا من نواحي الحكم ذاته .

وقد يكون من ابرز القيم التي استند اليها نظام الحياة الاسلامية فكرة القيمة الذاتية للانسان . واستنادها الى فكرة المسؤولية الفردية « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ثم فكرة الاخاء التي تجعل الانسان المسلم ينتمي الى جماعة المسلمين ويحس بانه عضو من اعضاء الجماعة المسلمة يعمل لمصلحة الجماعة والجماعة تسعى للارتفاع بمستوى الفرد . فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به ويعطيه ويأخذ منه ويحميه ويحتمي به .

وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح الانساني العام .

والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله مسئولين امامه عن اعمالهم « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » والاسلام حينما جعل الفرد مسئولا عن اعماله والمسئولية ـ هنا تقع عليه وحده ـ الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الانسان الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والقدرة على الدفع والبناء . وفي الوقت نفسه الانسان لبنة من لبنات المجتمع الانساني يعمل لمصلحة الجميع .

والاسلام لا يعترف بالفردية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

7) البيئة بعواملها المحلية وموقعها الجغرافي **قد ساعدت على اعطاء الحضارة الاسلامية ما كان لها من طابع ومن مكانة** . ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها منطقة وصل بين اطراف العالم عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم . ومن شواطئها تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الاحمر والخليج العربي . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببا في أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير في وسائل المواصلات وفي ظهور دور الوساطة الذي كتب للعرب ان يقوموا به ولم يكن الامر في ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على اهميته . وانما كان الامر اوسع واعمق .

فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ، ومن ناحية السلوك الانساني ، ومن ناحية الاعتدال ، في كل ما يتصل بالمادة والمعنى في الحياة . وهي امور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية . ومن هذه البيئة الوسط انتشر الاسلام شرقا وغربا بالبر والبحر على حد سواء .

8) القرءان الكريم ذاته وذلك ان القرءان لم يكن كتاب دين ، يحث على العبادة والتوحيد . وما يتبعها من عقائد وعبادات واوامر ونواهي ، كان دستورا **من اعظم الدساتير الصالحة التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانساني السليم** .

ولقد كان اول اثر من ءاثار القرءان في الفكر الانساني اهتمامه الواسع بالعلم وذلك ان العلم اساس التقدم ومرءاة نهضة الامم وعنوان حضارتها . وقد كانت عناية القرءان بالعلم تفوق حد الوصف ، تامل القرءان وتدبر ءاياته تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون واحداث الماضي . والقرءان نفسه مشتق من القراءة والقراءة ادنى مفاتيح العلم للانسان واول مانزل على محمد عندما كان يتحدث في غار حراء خمس ءايات هي قوله تعالى « اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ».

ففي هذه الآيات الخمس بدا الوحي الالهي بالقراءة في اول آية وكررها مرة اخرى في الآية الثالثة واوضحها مؤكدا ما رمى اليه من معنى وهو التعليم وزاد التاكيد بذكر القلم ثم لفت النظر الى الاصل الذي خلق الله منه الانسان وهو العلق وفي قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ما فيه من مكنون اسرار هذا الكون مما سيعرفه الانسان عبر مسيرته في هذه الحياة وحتى نهايتها .

واول قسم في القرءان اقسم به رب العزة في ثاني ءاية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالقلم وبما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون » فاول سورة نزلت من القرءان سورة العلق ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية في النزول بسورة العلق هي سورة القلم « وبالقلم يكتب ويتعلم الانسان » .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق ولا تتم الا بالعلم « الرحمن علم القرءان، خلق الانسان علمه البيان » .

وما الطف قول الشاعر :

اذا افتخر الابطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة
مدى الدهر ان الله اقسم بالقلم

والقرءان دائما يهتف بالانسانية « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » والقرءان يرفض ان يقف بالعلم عند حد بل يفتح للانسانية باحة ليس لها نهاية .

ولقد وضع الاسلام القواعد السليمة لوزن المعلومات . وتمييز صحيحها من زائفها فقرر ان المسائل لا تاخذ طابعا علميا ولا ترتقي الى درجة معلومات الا اذا قامت عليها بينة واستندت الى دليل ومن ثم كان القرءان ينادي دائما « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه » « ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم » « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

وهذه الآية الاخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند الى حجة سمعية او رؤية بصرية او براهين عقلية وهي طرق الاستدلال التي تنحصر في المعقليات والسمعيات والمحسوسات .

وهذا الميزان الذى وضعه الاسلام يدفع الناس دفعا الى تلمس الادلة . ويمشي بهم فى طريق النور والمعرفة ومظاهر الكون والرقي .

ولقد دعا **الاسلام الناس ان يمعنوا فكرهم فى هذا الكون الفسيح** وينعموا النظر فيما حوى من عجائب ، ليستغلوا ما حواه من موارد ويستكنهوا اسراره واسباب الحياة فيه قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدا الخلق » .

وقال تعالى « قل انظروا ماذا فى السماوات والارض » ولم يكتف القرءان بهذا بل ردد كلمة « العلم » بجميع اشتقاقاتها وتصريفها فى سوره وءاياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفي لتقدير المنزلة التى رفع القرءان « العلم » اليها . وكلمة العلم فى الاسلام عامة تشمل مختلف قطاعاته وتعدد اغراضه ومراميه .

وهذا كله دليل على ان **الشخصية الانسانية لا يرقيها شيء غير العلم** « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والقرءان مليء بالايحاءات لتنمية القوى العقلية المفضية الى النظر فى البراهين الدالة على قدرته سبحانه وتعالى الداعية الى التفكر والتامل فى هذا الكون العجيب الذى يمتليء بالظواهر الطبيعية التى تسير فى نظام ودقة عجيبين .

9) اللغة العربية نفسها فهي : من اعرق اللغات العالمية منبتا واعزها جانبا واقواها جلادة ، وابلغها عبارة واغزرها مادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس وذلك لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب

نزل القرءان الكريم بلسانها فجعلها اكثر رسوخا واشد بنيانا واقوى استقرارا وبفضل القرءان صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية .

واستطاعت فى ظل عالمية الاسلام ، ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات وترتفع حتى تصل ارقى اختلاجات النفس .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع واضح السمات بارز القسمات .

هذه اللغة فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالدة ومعارف البشرية الرائعة كما اتسعت لمقومات الامة الانسانية الاسلامية التى شرقت بالحضارة وغربت .

برزت الى الوجود قوية تتمتع بقوة لغة بالغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة وما بدت الا لتكون لسان الحضارة الاسلامية فى ظلال القرءان .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريان بكونهما لغتين عموميتين لافكار دينية وعقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة ؛ وهاتان اللغتان هما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

فقد كانت اللغة اليونانية تستعمل من « كمبانيا » فى ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطيء دجلة ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التى امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب ءاسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد امست اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ هبطت مدنيتاهما فما الذى حفظ اللغة العربية حية ؟

قالت الكاتبة « مي » ان الذى كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية هو الذى ما زال حافظها الى اليوم وهو القرءان، لقد كان الاسلام يرمي الى التوحيد سواء فى الدين والسياسة واللغة .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا فمن ذا الذي لا يعرف للقرءان فضله فى بقاء اللغة العربية حية ؟ ومن ذا الذى يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذى لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية واشورية وغيرها فى حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود وما فتئت تفيض قوة وحيوية .

انها الرابطة النفسية التى تربط بين اهل البلاد والصيغة الجميلة التى تودعها مكنوناتها العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسمت مبادىء ومثلا عليا لم تضق بها ولم تنكل عن احتمال اعبائها بل فى ظل حضارة الاسلام مرنت وامتصت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعملقت واتسعت ءافاقها وانتشرت ظلالها وفضت فى دورانها العظيم على كل ما يقف فى طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق والارتفاع واستطاعت بقوتها الذاتية ان تقشع اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة ــ جالتها فى صراع ــ بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة .

هذه اللغة دعمها القرءان اذ اخذت تفرض سلطانها فى بيئات جديدة فى اقطار الارض ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط ءاسيا حتى جبال البرانس فى شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها .

وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرءان وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات ومهما تكن الاسباب فانها اصبحت لغة قوية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين فى اجناسها واصل نشاتها ولكنها لا تلبث ان تعيش لها وبها وتحيا فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية .

والعربية ما تزال لغة الشرق الاسلامي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جذوتها وترسل اشعتها وشررها الى كل مكان حتى فى امريكا تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء فى المجلات والآثار الادبية .

وواضح انها اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن وقد المت بها خطوب كثيرة ولكنها وقفت فى طريقها كالصخرة فى مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما تلقت من ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية . فوسعتها جميعا وتمثلتها تمثلا منقطع النظير وكانما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من المعرفة والفكر وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غزيرا زاخرا متفتقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت العربية بين هذه الامم والشعوب فاذا هي عالم واحد مهما تدانت وتباعدت ومهما شرقت او غربت .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ.

لغة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس وتتجلى معانيها فى اجراس الالفاظ تتمثل فى نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ومشاعل الحياة ، فالمعاني المحسة والمعقولة مبينة فى الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف ءالة الضرب وموضعه من الجسم واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية فى الانسان وكل صفة فى عينيه وحاجبيه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت فقل تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تاخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصلية لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخريات لها الفتح والجر .

وما هذا الا ضربا من الحياة فى الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة، فيها مادة ووزن فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ثم صبها فى قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب او الاوزان، فمن سمع

فاعلا اومفعولا ادرك ان هذا الوزن فحركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها وبهذا امتازت العربية واستبانت خصائصها حتى نفت من نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها وللاسماء اوزان وللافعال اوزان فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول نقية .

ولقد اختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تعي ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة .

ولقد اراد الله لها ان تكون لغة كتابه وترجمان وحيه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا فى كلمات وءايات وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب وما استقام له ادراك واحساس .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن والعربية ثابتة ناضرة وامحت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمح ولم تتغير ولم تبدل .

ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما اولت لغاتها احيانا فصارت **لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين اقصى المغرب واقصى المشرق ولا تزال على تبدل الاحوال وتوالي الغير لغة ادب وعلم فى كثير من الامم الاسلامية غير العربية .**

وما تزال لغات هذه الامم مترعة بالفاظ العربية وما تزال تستمد من العربية الحروف والكلمات .

وقد حوت العربية على مر العصور ادبا لا تحويه لغة ادبا مواطنة ما بين الصين الى بحر الظلمات كما يقول العلماء ــ وزمانه اربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها ادبا اتسعت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الاعصار هذا الامتداد .

انتشرت العربية وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القرءان وبهذا **استطاعت العربية ان تكون لغة عالمية لاول مرة فى التاريخ الانساني .**

ولاول مرة تجد فى التاريخ لغة تنتشر بهذه القوة فقد **انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب** ولم تغير لغة من اللغات التى كانت قائمة فى تلك الايام فى بلاد الشرق **ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات غلبتها وتعمقت شعوبها .**

والرومانيون استطاعوا ان ينشروا اللاتينية فى المغرب الاوربي فى فرنسا وفى بريطانيا وفى اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة فى شمال افريقيا فلم يفلحوا .

ولكن العربية استطاعت ان تقهر اليونانية فى الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التى كانت منتشرة فى هذه البلاد وان تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم ان تقهر اللاتينية فى المغرب العربي وفى الاندلس وان تصبح هي اللغة العالمية التى يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت **لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة الدين** وكانت فى الوقت نفسه **لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري** وفى اقل من قرنين كانت **هذه اللغة قد استطاعت ان تسع كل الثقافات التى كانت معروفة فى العصور القديمة .**

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وعمقها وصعوبتها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم .

واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند بعد ذلك الثقافات التى كانت متوارثة بين السامية

فالعربية : **اداة الفكر الحي** نقل الناس اليها كتب السماء المنزلة مثل التوراة ، والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية .

ونقلوا اليها ما جاء به الحكماء وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب.

10) وبجانب هذا وذاك كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الاسلام وانتشرت عقيدته . ثم بالعنصر البشري والتكوين السكاني للمجتمعات الاسلامية .

فاما من العصر فان الاسلام كان ختام الاديان السماوية وكان بذلك رباطا لها من الناحية

التاريخية . كما كان في الوقت ذاته تصحيحا روحيا لصور من الديانات السابقة التي شوهها الزمن . وكان على الاسلام أن يصححها وينقيها ويرد اليها اصالة الفكر التوحيدي .

ولقد كان هذا كله مصدر قوة ودفع للفكر الاسلامي وما اتصل به من حضارة . وكذلك كان الامر بالنسبة لتصدي الاسلام لمعتقدات غير سماوية.

فهذا التصدي كان الحافز الاصيل للفكر الاسلامي والنظم الاجتماعية في ان تحتفظ باصالتها من جهة وان تجدد حيويتها وتوسع نطاق رحابتها ومرونتها من جهة اخرى .

ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامي مع الوان الحضارات التي التقى بها على قوة غلبت كل التحديات فانتشر طابع الحضارة الاسلامية في فعالية لم يعرف لها مثيل .

ومما يذكر ان **قوة الاسلام في انتشاره وترسيخ معالم حضارته قد تضاعفت بفعل مقوم انساني آخر عظيم هو تنوع السلالات التي دخلت في الاسلام .**

ثم هناك ظاهرة اخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل وهي ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمني في الحضارة الاسلامية .

ان هذه الحضارة تمتاز بان كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحي رسالة السماء التي تمدها بالروح والقوة والتماسك . وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل وعن المادية الجامحة الفاسدة

فالحضارة الاسلامية :

1 – في نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وافراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة .

2 – وفي نظامها السياسي تقوم على الشورى والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل اسباب القوة والمنعة ، والدفاع عن مقدسات العقيدة والوطن .

3 – وفي نظامها الاخلاقي تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق والتزام الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالانسانية الى الكمال والتقدم

4 – وفي نظامها الاجتماعي تقوم على الاسرة المتماسكة القائمة على ركائز من المودة والرحمة والاخلاص والاحترام والتعاون والتعارف . وقيام كل راع بمسئوليته .

5 – وفي نظامها الاقتصادي تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية .

6 – وفي نظامها التشريعي ، تقوم على اصول رئيسية واسعة . وقد تمثلت هذه الناحية في ثروة من الفقه الاسلامي . تجلت فيها عبقرية الحضارة الاسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكري .

7 – وفي نظامها الثقافي تعتمد على طلب المعرفة ايا كانت واستخدام العقل في كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة . واعتبار الثقافة ايا كان مصدرها ومهدها تراثا عاما للانسانية .

8 – وفي نظامها الفكري تقوم على حرية الفكر واستقلال الارادة . فلم تنهض العقول ولم تتحرك الا بعد ان عرفت ان لها حقا في طلب الحقائق

ونستطيع ان نصل الى ان الحضارة الاسلامية:

1 – وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما اضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة الخلاقة .

2 – انقذت العالم القديم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب في الحضارات واستعباد وظلم اجتماعي .

3 – اعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد في اسمى صورها ومجتمعا جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بين الجميع

4 – اعطت الانسانية ذخيرة حية ضخمة من المعارف افاد منها الغرب في عصر الاحياء والنهضة ، واعتمد عليها العالم الاسلامي في يقظته الحديثة وفي بناء نهضته المعاصرة .

5 ـ وضعت بعض اصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الغزالي والاحاطة بجميع جوانب الموضوع ايجابا وسلبا . ولقد جاء في رسائل اخوان الصفا دستور علمي ينحصر في تسعة احكام . وهاهي كما جاءت في الرسالة السابعة :

السؤال الاول هل هو :
يبحث عن وجود الشيء او عن عدمه

السؤال الثاني ما هو :
يبحث عن حقيقة الشيء

السؤال الثالث كم هو :
يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع كيف هو :
يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس اي شيء هو :
يبحث عن واحد من الجملة او عن بعض من الكل

السؤال السادس اين هو :
يبحث عن مكان الشيء او عن رتبته

السؤال السابع متى هو :
يبحث عن زمان كون الشيء

السؤال الثامن لم هو :
يبحث عن علة الشيء المعلول

السؤال التاسع من هو :
يبحث عن التعريف للشيء .

6 ـ فتحت للانسانية آفاقا جديدة في البحوث الانسانية كفلسفة التاريخ والاجتماع عند ابن خلدون . وعلم البصريات على يد «ابن الهيثم» وابتدا مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد « الخوارزمي » و « عمر الخيام » .

7 ـ ساعدت بآدابها على نهضة الاداب في اوربا وفتحت آفاقا جديدة امام شعراء الغرب وكتابه .

8 ـ ساعد حلفاؤها وقادتها بسلوكهم الاخلاقي وبنماذج المروءة والشرف التي تحلوا بها على اشاعة المثل الاخلاقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم او في الحرب .

ولقد تلمست اوربا انها حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر انواع الفنون الحضارية وبنى رجال اوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم اسس النهضة الحديثة التي ظهر نجمها في القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر وتالق في القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العلم هو الذي خرج رجال الحضارة وجهابذة العلم واساتذة الدنيا وعمالقة العلماء امثال :

ابن الهيثم والكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والفرغاني والطوسي والبغدادي والدينوري والرازي والقزويني والانطاكي والزهراوي والغافقي والخوارزمي والصوفي وجابر والجاحظ وابن البيطار وابن النفيس وابن حيان وابن حمزة والادريسي والمسعودي وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا **ابن الهيثم** (965 ـ 1039) يبحث في السهول والاودية ويجول فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلي يسهر على قمم الجبال العالية يحدق في الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويعرف ابعادها ويقيس محيط الكرة الارضية بالاجهزة الدقيقة .

وابن النفيس يجري التجارب والاختبارات حتى يثبت ان الدم ليس سائلا مستقرا في الاوردة والشرايين المبثوثة في الكائن الحي . بل هو سائل متحرك يدور في جميع أجزاء الجسم وذلك قبل ان يكتشف (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه الذي يسبق فلاسفة اوربا وعلماءها بثمانية قرون في علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيلوجيا .

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلطة حتى يضع اصول علم الكيمياء ، وابن يونس يسبق العلماء في اختراع بندول الساعة (الرقاص) .

هذا كله في الوقت الذي كانت اوربا فيه تعيش في ظلمات الجهل والفوضوية والهمجية والتاخر ولم ينقذ اوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها الا نور

الاسلام وما زالت أسماء العلماء والمصطلحات التى اعطاها هؤلاء العلماء المسلمون لغرائب العلم ما زالت حية نابضة فى جميع اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير ، ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم فى ذاته . والذين لا تسيطر عليهم العصبية الهوجاء والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربي بعض النقول التى جاءت على لسان فلاسفة العالم والتى تشهد صراحة وضمنا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع أن الاسلام ليس فى حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوي بذاته لكننا ناتي بها لما نراه من ان كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يغمطون حق حضارة العرب. وان شئت بعبارة أقرب فقل انهم يجهلونها ولا يعرفون عنها الا النذر اليسير والى هؤلاء واولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة .

قالت الكاتبة الالمانية الدكتورة (سيجريد هونكه) ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها ابناء الصحراء من العدم من اعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ الحقل البشري فسيادة ابناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وان الانسان ليقف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتى يحار الانسان فى تحليلها وتكييفها .

وقالت ايضا : « وان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذى فى عنق اوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا »

وقال العلامة «كاربنسكي» ان الخدمات التى اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد دلت على تعظيم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى.

وقال الفيلسوف الفرنسي « الكسي لوازون » : خلق محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل للاخلاق وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسالة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرءان والقوانين الطبيعية .

وقال العلامة « دربير » المدرس بجامعة (هارفارد) بامريكا فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل باول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة 638 ميلادية اي بعد موت محمد بست سنوات ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استانسوا بجميع الكتب العلمية وقدروها حق قدرها .

ولو اردنا ان نستقصي كل نتائج هذه المعركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة فى اساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسنن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبن وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل من انواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجودون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها واننا لندهش حين نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية وما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .

ويقول فى مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك اوربا وامراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها .

وقال العلامة « سديو » فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الى اوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . وقال العلامة « جيبون » المؤرخ الانجليزي :

« كان من اثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي فى المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لاحد السلاطين انه تبرع بمائتي الف دينار لتاسيس جامعة علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر الف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة ءالاف لا فرق فيهم بين غني وفقير .

وقال « دربير » : أول مدرسة انشئت للطب فى أوربا هي المدرسة التى اسسها العرب فى (بالرم) من

ايطاليا واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا وانهم رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما اخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

ولقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا غيرهم فى هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب .

وانظر الى كتب البيروني تجد ان الادب والرياضيات اجتمعا متعانقين .. قال العلامة «درابرا» : « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا عن الاسلوب الذى توخوه في مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذى اوجب لهم الترقي الباهر فى الهندسة والمثلثات .

وقال الكاتب الهندي « فسواني » : التهذيب العربي هو الذى انشأ فى آسيا واوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة .

ان هذه الاقوال التى جاءت على لسان علماء افذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنا وجملة وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التى لمست الانسانية فيها معاني السيادة ومست القلوب فيها معاني السعادة واعتلت فى ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الابد باقية بقاء الدهر مدوية دوي الآذان لا ينضب لها معين ولا ينتهي لها مدى ولكن ذلك رهين برجوع العرب الى منابع عزهم ، هذا واذا كانت الحضارة الاسلامية لها من الدعائم والركائز المشرفة ما وصل بها الى ذروة ما قدر للانسانية من التقدم ولها من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح لها ان تكون لها فلسفتها الخاصة بوجودها .

فهل يمكن لهذه الحضارة ان تعود الى اشراقها من جديد فتساهم فى اعطاء الحضارة الانسانية ذخيرة من القوة والقدرة .

الحقيقة التى لا يسوغ انكارها أن آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له بأن ينمي فلسفته الخاصة به والتى تنبع من الفكر الاسلامي . ويتضح ذلك من الحقائق التالية :

اولا ـ ان العالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

1 ـ تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان . بعيدة عن القطبين ومسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين. ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

2 ـ وانها تمتلك من شواطيء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانى العالم كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

3 ـ وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء.

4 ـ وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

5 ـ وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ فى المذاهب الاخرى ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم الاسلامي قوة ايجابية مهيبة الجانب مخطوبة الود . يتهيب العدو بأسه ويخشى سلطانه وتجعله ايضا مهيأ للاسهام فى بناء الحضارة الانسانية واعادة صنع الحياة وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

ثانيا ـ واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع وما لهما من خصائص ومميزات وما لهما من كنوز وخيرات الى الحديث عن الاسلام نفسه فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التى جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتحه .

العقيدة التى تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صوره واشكاله عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله . « قل هو الله

احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا احد » .

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذى أبدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس « اذا سالت فاسال الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » . والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية فى حدود الحق والفضيلة وباعتبار انه دين توحيد واجتماع امكن للاسلام ان يقيم المجتمع على اسس القيم الاخلاقية العليا وان يرضي مطالب الروح والجسد حتى ترافقا فى اعتدال وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر فى اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة الرائعة التى تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها وتعطي كل مطمع من مطامع الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها انها تبعث فى روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر وروح الثقة فى غير اغترار وشعور الاطمئنان فى غير تواكل .

ثالثا ــ ان الاسلام متصل بشؤون الحياة والحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التباور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالاضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة فى الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة أوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها وياخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعقبها الا وله فى الاسلام عرق ينبض واصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة وجامعة اللغة العربية واشتراك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

رابعا ــ ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم ومجدهم والتمسك بأسمى القيم الاخلاقية الاسلامية والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابعة بالسمو والمليئة بالجدوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها .

قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية ــ كما كانوا من قبل ــ اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الاخذ بها . »

وقال العلامة دامبري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين والذى احياهم هو الدين والذى يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتى : « ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية وهو دور يمكن ان نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية » .

والدكتور سمث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم ..

(يتبع)